ذكريات مدرسية

بقلم: د. عبدالقدوس أبو صالح

إذا كان لكل مسمى من اسمه نصيب فقد كان للمعلم«نافع أفندي»أكبر نصيب من اسمه.فقد كان أكثر المعلمين نفعا لتلاميذه الصغار في المرحلة الابتدائية،وهو الذي حبب إلينا مادة العلوم بما كان يجريه أمامنا من تجارب فيزيائية أو كيميائية تبهر عقولنا،وتؤثر فينا أشد التأثير.

وكنا ننظر إليه على أنه مثل أعلى في دماثته وتواضعه،وبخاصة عندما نقارنه ببعض الأساتذة الذين كانوا يمثلون لنا نماذج حية من التكبر والتسلط والجبروت.

وكان مما حبَّب هذا المعلم إلى قلوبنا أنه كان يتبسط في دروسه معنا، وكان يحدثنا عن بعض تجاربه وتصرفاته مما لم يكن له أحيانا علاقة بالدرس الذي يقرره أمامنا. وكان في خلال ذلك يطرح علينا بعض الأسئلة التي توسع مداركنا ،وربما حدثنا عن بعض أسفاره التي تعرف منها أن العالم ليس محصورا في الحي الشعبي الذي نسكن فيه، ولا في البلدة التي نعيش فيها.

ومع ماكان لهذا المعلم الحبيب من فضائل إلا أنه كان يقسو على الطلاب الكسالى، وكان يحاول حملهم على الاجتهاد، حتى إذا أعياه الأمر انصرف عن الطالب الكسول، ووصفه بأنه«حجرة سوداء» وألزمه أن يجلس في المقاعد الأخيرة من الفصل.وكان من تلك الحجارة التي جمدها المعلم ذلك الطالب الذي طلب إليه أن يحدثه عن نهر النيل، وبدأ الطالب المسكين حديثه متلعثما،ولم يفتح الله عليه إلا بعبارة«ينبع نهر النيل من..» حتى إذا ردد هذه العبارة عدة مرات نفد صبر«نافع أفندي»، وكان ينظر من النافذة في الدور العلوي إلى تلة معروفة بأنها«تلة أبو حمدو» فقال للطالب: مالك تتلعثم.. ألا تعلم أن نهر النيل ينبع من«تلة أبو حمدو» وماكاد نافع أفندي ينطق بهذه الجملة حتى بادره الطالب بقوله: «نعم ياأستاذ إن نهر النيل ينبع من تلة أبو حمدو..ووالله لقد كان هذا الجواب على رأس لساني ولكني نسيته..» وصدر حكم« نافع أفندي»بأن يكون الطالب«حجرة سوداء» ولو كان يملك لألحق هذه الحجرة بـ«تلة أبو حمدو».

وكان من تبسّط «نافع أفندي» معنا أنه سألنا وقد رزقه الله بأولى بناته قائلا:من يعطيني اسما لابنتي من ستة أحرف فله عشر درجات، ومضيت مع الطلاب أعمل ذهني وأشحذ ذاكرتي، وكنا قد درسنا شيئا من تاريخ الفرس فرفعت يدي سابقا الطلاب جميعا، وصحت دون انتظار لإذن المعلم:«يزدجرد»..ورأيت أمارات الذهول على وجه «نافع أفندي» ثم انقلب الذهول إلى صيحة استنكار قائلا:«سيف يجرد رقبتك..هل تريدني أن أسمي ابنتي يزدجرد؟!..ثم أكمل كلامه قائلا:«والله لولا أنك من الطلاب المجتهدين لجعلتك «حجرة سوداء» تقديرا لذوقك المنحرف.

وما مضى على هذا الموقف المخجل شهران أو ثلاثة حتى طرح علينا أستاذنا الفاضل السؤال التالي: «هاتوا قولوا لي ماهو مذهبكم: هل أنتم سنة أم شيعة أم إسماعيلية أم دروز أم يزيدية أم..أم..». وانثالت هذه المسميات من فم معلمنا مما لم نكن سمعنا به من قبل . ومضيت أستعرض هذه المفردات في ذهني برويّة وإمعان حرصا على معرفة الجواب الصحيح، حتى أزيل من ذهن « نافع أفندي» آثار خيبتي السابقة، وهداني التفكير إلى أن الجواب الصحيح هو «اليزيدية».. ظنا مني أنها نسبة إلى يزيد بن معاوية الذي درسنا أنه ثاني الخلفاء الأمويين.

ورفعت يدي دون تردد قائلا : «يزيدية».. ورأيت أمارات الذهول والاستنكار ترتسم على وجه المعلم ، ثم انفجر صائحاً - وهو يعلم أن والدي من المشايخ المعمَّمين- : «يخرب بيتك .. والله لو أن عمامة والدك وقعت على هذه المدرسة لهدمتها.. وتقول: «يزيدية ، يعني من عبدة الشيطان ؟!.. والله مالك عندي من عقوبة إلا أن أعطيك صفرا في التربية الإسلامية .. ولو أخبرت أباك الشيخ لكان جزاؤك عنده أشد وأنكى...» . ■